(١٨) القرآن كلام الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

قال المؤلف غفر الله له: (وأن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفيةٍ قولا وأنزله على رسوله به وحيا وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوقٍ ككلام البرية فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله تعالى وعابه وأوعده بصقر حيث قال تعالى: { سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر: ٢٦]، فلما أوعد الله بصقرٍ لمن قال: { إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ } [المدثر: ٢٥]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فنحن بين يدي مبحثٍ شريف وأصلٍ عظيم من أصول الديانة ومن مفاصل الاعتقاد وهو ما يتعلق بالقرآن العظيم حجة الله تعالى على عباده، هذا الكتاب الذي أبقاه الله تعالى لنا لنعتصم به ونرجع إليه عند التنازع وليكون لنا نوراً وبرهاناً وشفاءً لما في الصدور.

وقد تقدم الكلام عن مسالة الإيمان بالكتب من حيث الجملة وما الواجب حيال هذا الركن من أركان الإيمان ثم إنه يتوزل من هذا الأصل العظيم وهو الإيمان بالكتب ما يتعلق بالإيمان بالقرآن خاصة إذ أن هذه المسألة من المسائل العظيمة التي جرى فيها الخلف بين أهل القبلة كما قال الله تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [البقرة: ١٧٦]، كان لابد من بيان الحق في المسألة ورفع الالتباس.

وقد قرر الطحاوي -رحمه الله- جملاً نورانيةً بينةً هي معتقد أهل السنة والجماعة في القرآن العظيم وفيها بيان ما يجب على أهل الإيمان تجاهه فقال فيما قر -رحمه الله- **(وإن القرآن كلام الله)** هكذا ينبغي أن تكون بكسر الهمزة لأن ذلك مقول القول فقد ذكر في أول رسالته **(نقول بتوفيق الله معتقدين بتوحيد الله إن الله واحد)** فتكسر الهمزة فعطف عليها **(وإن القرآن كلام الله)** هذه الجملة المحكمة قد دل عليها الكتاب والسنة حيث قال الله عز وجل: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } [التوبة: ٦]وقد أجمع المسلمون على أن المستجير يتلى عليه القرآن، فهذا القرآن الذي قرع سمعه هو كلام الله فالقرآن كلام الله بنص كتاب الله.

وقد سماه الله كلامه في غير ما موضع مثل قول الله تعالى: {يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ

اللَّهُ مِنْ قَبْلُ } [الفتح: ١٥]، فسمى ما أوحاه إلى نبيه من الحيلولة بين خروج المنافقين مع المؤمنين للغزو كلاماً له فالقرآن كلامه سبحانه وتعالى وكذا في صحيح السنة فإن نبينا صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل في الموسم ويقول: (ألا رجلٌ يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل) فهذه الجملة جملةٌ محكمة نعض عليها بالنواجذ ونقول القرآن كلام الله وهو كلامه سبحانه وتعالى حقيقةً ونعني بقولنا حقيقةً أي أنه كلام الله حروفه ومعانيه ليس الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف كما فاه بذلك بعض أهل البدع.

وذلك أن حقيقة الكلام مركبةٌ من المعنى واللفظ لا يكون الكلام كلاماً إلا من معنى ولفظ فلا يمكن أن يطلق الكلام على أحد جزئيه بل مجموع جزئيه، فالله سبحانه وتعالى قد تكلم بالقرآن العظيم حقيقةً بمعنى أنه تكلم به سبحانه بحرفٍ وصوت والمعنى قائمٌ في نفسه سبحانه والحرف والصوت بدا منه سبحانه ولهذا قال الطحاوي –رحمه الله–: **(منه بدا بلا كيفيةٍ قولا)** منه بدا أي أنه صدر من الله سبحانه وتعالى وفي هذا ردٌ على الجهمية والمعتزلة الذين يزعمون أن الله خلق كلامه في غيره أو خلق كلاماً وأضافه إليه إضافة تشريف فأراد الطحاوي بهذه الجملة الرد على المعتزلة وأسلافهم من الجهمية فقال: (منه) أي من الله لأن الله تعالى إذا ذكر القرآن يأتي بحرف من {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢] ونحوها من الآيات.

(منه بدا بلا كيفية) وفي هذا ردٌ على أضدادهم من أهل التمثيل الذين ربما حكوا الكيفيات فبين أن هذا البدو والصدور من الله عز وجل نثبته حقيقةً دون أن يلزم من ذلك تكييف وهذا أمرٌ تتسع له العقول فالله عز وجل قد قال مثلاً: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ } [يس: ٦٥]، فنحن نؤمن حقاً أن الأيدي تتكلم مع أننا لا ندرك كيفية كلامها وأخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أن العبد يوم القيامة أي الكافر ينافخ ويقول ياربي ظلمني كتبتك ظلمني الملائكة الكاتبين فيقول الله تعالى: كفى بالكرام الكاتبين شهوداً وكفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ثم يختم الله على فيه ويأمر جوارحه أن تنطق فيكون أول ما ينطق فخذه.

إذاً نحن نؤمن بذلك كما أننا لا ندرك كيفيته فلهذا قال: **(منه بدا بلا كيفية)** ومراده بلا كيفية أي بلا كيفيةٍ مدركة متعقلة لا أن ليس له كيفية لا ريب أن له كيفية لكن كيفيةٌ لا يعلمها إلا هو سبحانه؛ لأن نفي الكيفية تعطيلٌ محض ففرقٌ بين نفي تكييف ونفي الكيفية فهو أرد بقوله هنا بلا كيفية أي بلا تكييف أو بلا كيفيةٍ مدركةس لنا قوله **(منه بدا بلا كيفيةٍ قولاً)** مصدر مؤكد للفعل بدا يعني أنه تأكيد لبدوه من الله كلاماً حقيقياً.

والله سبحانه وتعالى قد نوع أساليب إثبات كلامه فقال سبحانه {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } [النساء: ١٢٢] ، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: ٨٧]، {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ} [القصص: ٦٥]، {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا}

[الأعراف: ٢٢] ، {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: ٥٢] فأثبت المناداة والمناجاة فالمناداة الصوت لمن بعد والمناجاة الصوت لمن قرب وأثبت الكلمات وأضافها إليه قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } [الأنعام: ١١٥]، وقال: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [الفتح: ١٥].

وما أكثر أن تجد في القرآن قال الله ونحو ذلك مثل {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} [المائدة: ١١٠]فقد تنوعت أساليب القرآن في إثبات القول لله سبحانه وتعالى بجميع أنواع التصاريف بما لا يبقي في النفوس السليمة والفطر المستقيمة شكاً في أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بكلامٍ حقيقي يتكلم بصوتٍ يسمعه من شاء من خلقه فقد سمعه جبريل وسمعه موسى عليه السلام مباشرةً عند الطور وسمعه نبينا صلى الله عليه وسلم في السماوات العلى ليلة المعراج ويخاطب به عيسى يوم القيامة {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [المائدة: ١١٦]فلا ريب أن الله تعالى يتكلم بكلامٍ حقيقي.

قال: (**وأنزله على رسوله وحياً**) إذاً: هذا يدل على علوه سبحانه وبحمده فإن الإنزال لا يكون إلا من أعلى فالله تعالى أنزله على رسوله وهذا الرسول يتناول الرسول الملكي والرسول البشري فالرسول الملكي هو جبرائيل عليه السلام الروح الأمين {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } [الشعراء: ١٩٣]، فإذا تكلم الله تعالى بالوحي أخذت السماوات رجفة أو رعدة فيصعق الملائكة ويخرون غشياً فيكون أول من يفيق جبرائيل فيوحي الله تعالى إليه ما شاء من الوحي ثم ينزل به جبريل عليه السلام كما في الحديث الذي مر بنا في كتاب التوحيد فلا يمر على ملك من الملائكة إلا قالوا: ماذا قال ربنا ياجبريل؟

فيقول قال الحق، فتقول الملائكة: قال الحق، لهذا قال الله عز وجل: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [سبأ: ٢٣] فكلمة قالوا الحق باعتبار ما صار من مجموعهم، فينزل به جبرائيل عليه السلام فيوحيه إلى محمد صلى الله عليه وسلم والوحي هو الصوت الذي يوصل بطريقةٍ خفية، أن تقول مثلاٍ أوحيت إلى صاحبي كذا وكذا أوصلت له يعني أوصلت له ذلك بطريقٍ خفي كالهمس أو نحو ذلك.

فلا يدرك من حول النبي هذا الوحي النازل يدركه النبي صلى الله عليه وسلم إنما يدركون بعض آثاره كأن يسمعوا صلصلةٍ كصلصلة الجرس أو دوياً كدوي النحل أو يرون أثر ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم بأن يتفصد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد أو أن يروا من آثاره ثقلاً عليه صلى الله عليه وسلم حتى أن الراحلة لاتعجز عن حمله وتلوح به وحتى أنه كان متكئاً على فخذ أحد أصحابه فكادت أن فكادت أن ترد {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا } [المزمل: ٥] .

(**وأنزله على رسوله وحياً**) فهذا الكلام إذاً المضاف إلى الله عز وجل الذي حمله الرسول الملكي للرسول

البشري نزل على الرسول وحياً (**وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً**)، لم يزل أهل الإسلام من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يومنا هذا ممن سار على السنة المحضة يصدقون بأن القرآن كلام الله لا يقولون غير ذلك.

(**وصدقه المؤمن على ذلك حقاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة**) هذا تأكيد من الطحاوي -رحمه الله- أن كلام الله الذي تكلم به تكلم به على وجه الحقيقة لفظاً ومعنى ولا يلزم من ذلك كما أسلفنا تمثيل.

قال (وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوقٍ ككلام البرية) في هذا عود على تخطئة مذهب المعتزلة فإن المعتزلة قالت: إن الله تعالى خلق كلاماً وأضافه إلى نفسه إضافة تشريف كما يقول: بيت الله، ناقة الله، عبد الله، فهو قد أضافه إلى نفسه وهذه الإضافة كثيرة فكذلك القرآن كلام الله فقد أضافه إلى نفسه إضافة تشريف وإلا في الحقيقة لم يتكلم ولم يقم به كلام ولم يبدوا منه كلام وإنما خلق كلاماً في الفضاء، قالوا مرةً أنه خلق كلاماً في جو الجنة فسمعه الأبوان حينما قال الله تعالى: {أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأعراف: ٢٢] ، قالوا أن لله خلق كلاماً في جو الجنة سمعه الأبوان وهذا الكلام ليس صفته بل هو مخلوقٌ له أضافه إلى نفسه إضافة تشريف كما أضاف إلى نفسه الكعبة فقال: بيت الله، ومحمد فقال: { لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ} [الجن: ١٩]، وناقة صالح {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا } [الشمس: ١٣] من هذا القبيل، هذه دعواهم ولا ريب أنها دعوى باطلة وذلك لأنه ينبغي التمييز في المضاف إلى الله عز وجل بين إضافة الأعيان وإضافة الأوصاف فما أضيف من الأعيان إلى الله عز وجل فهو مخلوق وما أضيف من الأوصاف فهو صفة وبعبارة أخرى إن كان المضاف إلى الله عيناً يتصور قيامها بذاتها فهي ليست بصفة بل هي مخلوقة كناقة الله، وبيت الله، وعبد الله، وإذا كان المضاف شيءٌ لا يتصور أن يقوم بنفسه فهو صفة كعلم الله وعزة الله وكلام الله فلذلك نقول دعواكم هذه دعوى باطلة والإضافة هاهنا إضافة الصفة إلى المتصف بها لا إضافة المخلوق إلى خالقه.

فرد عليهم الشيخ مرةً أخرى بقوله: (**ليس لمخلوقٍ ككلام البرية**) والبرية أي المخلوقين؛ لأنه لا يمكن أن يكون وصفٌ من أوصاف الله مخلوق لا يمكن ذلك فالله سبحانه وتعالى تقوم به صفات الكمال ونعوت الجلال ولا يمكن أن يكون وصفٌ من أوصاف الله مخلوق فالله تعالى ليس محلاً للمخلوقات.

قال: (فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال تعالى: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ } [المدثر: ٢٦]) في هذا إشارة إلى ما جرى من الوليد بن المغيرة حينما تكلم في شأن القرآن قال الله تعالى حاكياً حاله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ

(٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ } [المدثر: ١١ - ٢٦]

أرأيتم كيف أن ذاك المشرك الذي تحير في شأن القرآن وفي جماله وبهائه ونوره وبيانه وإحكامه ضاقت به السبل ماذا يمكن أن يقول، كيف يفسر هذا الشيء الذي لم يعهده العرب على أنهم أرباب البلاغة والفصاحة يدهشهم ويحيرهم ويذعنون له ويخضعون له كما قال ربنا عز وجل: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام: ٢٦] يبلغ بهم الانجذاب للقرآن أن يخرجوا ليلاً متسترين بجنح الظلام إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصغوا لقراءته للقرآن لأنه يأخذ بالألباب وبمجامع القلوب حتى إن بعضهم يقع على بعض فيقول لو رؤاكم سفهاء مكة لأمنوا بمحمد فيتعاقدون ويتعاهدون على عدم العودة ثم يعودون في الليلة التي تليها إلى هذا الحال فكان القرآن محيراً لهم مدهشاً فلأجل ذا جعل ذلك الشريف من أشراف المشركين يقدر وينظر ويتأمل وكأنما هو يمعن النظر حتى خرج بهذه الخلاصة الباطلة فقال: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)} [المدثر: ٢٥]فلما قال ذلك قال الله: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر: ٢٦] فما حال هؤلاء المعتزلة ببعيدٍ عن حالهم لأنهم يقولون أن هذا مخلوق لأنه كما أن قول البشر مخلوق فما ادعوه في القرآن أنه مخلوق يشابه قول ذلك المشرك.

أما أهل الإيمان فإنهم يقولون هو كلام الله يجلونه وينزهونه ويعتقدون فيه العصمة وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد وجدنا بعض زنادقة العصر يعزز قول المعتزلة وينتصر له طمعاً أن يصل إلى نتيجة وإن كان المعتزلة لا يقولون ذلك من باب الإنصاف لكن بعض زنادقة العصر يعزز قول المعتزلة في أن القرآن مخلوق ليكون ذلك فتح باب لهم لنقد القرآن العظيم وإخضاعهم كما يقولون لنقد التاريخي كما فعل اللاهيتيون مع التوراة والإنجيل فأعجبهم في مقالة المعتزلة هذا وإن كانت المعتزلة لا تقول بقولهم في نقد القرآن وعدم عصمته لكنهم فتحوا باباً لهؤلاء الزنادقة **قال الله تعالى: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر: ٢٦] فلما أوعد الله بسقر لمن قال{إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)} [المدثر: ٢٥] علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر**، هذا معتقد أهل السنة في القرآن العظيم أن القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود تكلم الله به حقيقةً فأوحاه إلى جبريل فنزل به على قلب محمدٍ .

القرآن كلام الله منه بدأ أي أن الله تعالى تكلم به ابتداءً وهاهنا نقطةٌ لابد من إدراكها وهو أن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدأً لا إلى من قاله مبلغاً ومؤدياً، فما الدليل؟

لو سمع أحدنا منشداً يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بصدق اللوى بين الدخول وحومل

فقيل قول من هذا؟ فماذا نقول؟ قول امرئ القيس لا نقول قول هذا المنشد لأن الكلام إنما يضاف إلى من

قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً ومؤدياً، ولو سمع أحدنا محدثاً يقول: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى فقيل قول من هذا؟ قلنا محمد صلى الله عليه وسلم ولم ننسبه إلى هذا المحدث لأن المحدث مجرد راوي مبلغ وإذا سمع أحدنا قول الله تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢]فقيل قول من هذا؟ لقلنا هو قول رب العالمين ولم نقل هو قول هذا التالي أو هذا الإمام أو نحو ذلك لأن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً ومؤدياً.

وقد شبه المعتزلة بهذا المقام قالوا أن الله تعالى قد أضافه إلى الرسول فقال: { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: ١٩ - ٢١] فقالوا أرأيتم ها قد أضافه إلى الرسول فيقال جواباً عنهم لو تأملتم لعلمتم الله تعالى قال: { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [التكوير: ١٩] فوصفه بوصف الرسالة ثم وصفه بعدها بوصف الأمانة {مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: ٢١]إذاً هو رسولٌ مؤتمن على التبليغ ويدل على هذا أنه تارةً أضافه إلى الرسول الملكي كما في سورة الشمس، وتارةً أضافه إلى الرسول البشري كما في سورة الحاقة { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } [الحاقة: ٤٠ - ٤٢]، فيستحيل أن تكون هذه الإضافة وهي لنصٍ واحد صادرة عن شخصين أحدهما ملك والآخر بشر مما يدل على أن مهمة الملك والبشر في هذا هو مجرد التبليغ لهذا وصفهما بوصف الرسالة فلا حجة لهم في هذا.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..